الظاهرة السياسية فی شعر الشریف الرضی

علی اسدی

دانشکده الهیات، دانشگاه فردوسی مشهد

چکیده

این مقاله پیرامون بعد سیاسی در اشعار سیدرضی بحث می‌کند و برخی از جنبه‌های این موضوع را مورد بررسی قرار می‌دهد. و آغاز پدیده سیاسی در اشعار سیدرضی را پس از تبعید پدر آن بزرگوار و زندانی شدن او به دستور عضدالدوله آل بویه می‌داند. انگیزه‌های گوناگون وی را واداشت که به بازداشت نامبرده و مصادرهٔ دارایی‌هایش دست بزند. هنگامی سیدرضی مسؤولیت حجاج، و سرپرستی طالبیان، و رسیدگی به شکایات مردم را به عهده گرفت بعد سیاسی در اشعار او به اوج خود رسید.

ستایش از پادشاهان و وزیران یا سپاسگزاری و تبریک گفتن به آنها و دشنام‌دادن برخی از شخصیتهای سیاسی به علل مختلف و تعریف از موضعگیری سیاسی که تعدادی از شخصیتهای نامدار آن دوران داشتند، همچنین ثبت بعضی از رویدادهای سیاسی، و افتخار سیاسی برجسته بعد سیاسی را تشکیل می‌دهد. لازم به یادآوری است که قصاید سیاسی سیدرضی بیش از نود قصیده است.

نکتهٔ جالب توجه در بعد سیاسی این است که سیدرضی در برخی از قصیده‌ها پادشاهان عباسی را به‌طور شگفت‌انگیز ستایش کرده است. این مقاله به بررسی انگیزه‌های سیدرضی در ستایش از عباسیان پرداخته است،و نظرات بعضی از نویسندگان را مطرح و با دلیل رد کرده است و برداشتهای منطقی و بی‌طرفانه‌ای را برای توجیه این ستایش قابل توجه ارائه داده است که با شخصیت بلند سیدرضی سازگاری دارد، به‌ویژه او با دیگر شاعران تفاوت داشت چون او شخصاً قصاید را

نمی‌خواند و از ارتزاق و تکدی به‌وسیلهٔ شعر به دور بود و برای آبروی خویش اهمیت ویژه‌ای قائل بود. و این مسایلی است که مورد تأیید همه کسانی است که به شرح حال این شخصیت بزرگ پرداخته‌اند و ما آن را در سرگذشت دیگر شاعران نمی‌بینیم.

توطئه

الظاهرة السياسيّة في شعر الشريف الرضي لافتة للنظر لما تستبطنه من خصائص قد يبعث بعضها على الاستغراب. فهي قمينة ـ إذن ـ بالتأمّل و الدراسة. و ما أروم الخوض فيه هنا هو نقاط إثارة تمثّل تمهيداً لدراسة موضوعية وافية قد أُوفّق لها في المستقبل، إن‌شاءاللّه.

و هذه النقاط - مجتمعة - تشكّل الهيكل العام لموضوع دراستي هذه الّتي حدانى عليها مااستفرغ عجبي من قصائد أنشدها هذاالشاعر العملاق في مدح الطائع العبّاسى و غيره. وجهدت قبل البدء أن أحظى بتموين يرفدني في هذا المجال مدعوماً بالدليل، فلم أُسعَف الاّ بتبريرات قديُستساغ بعضها و قد لايُستساغ، و قد يوائم بعضها ما صدر عنه و قد لايوائم. و ماكان هذا و ذاك الاّ مراعاة للقدسيّة الّتي كان يتمتّع بها شاعرنا المترجم له انحداره من أُرومة طابت و طهرت، إذ أذهب اللّه عنها الرجس و طهّرها تطهيرا.

هذا و قد شهد للشاعر بالنزاهة و العفّة و الترفع كلّ من ترجم له. ولم ينتقص منه أحد، مع إقرار بقوّة شاعريّته الّتي سجّلها المنصفون في كتبهم، بل قدّموه على غيره من الشعراء ممنّ سبقه أو عاصره[۱]. و حسبنا منه انّ شرذمة من الّذين في قلوبهم مرض نسبوا اليه (نهج البلاغة) مع انّ‌الباحثين المتتبّعين دحضوا هذا الافتراء بالدليل و البرهان[۲]. الاّ انّ مايهمّنا هنا هو اجتماع كلمة العلماء و المنكرين و المحقّقين الكبار على عظمته، وسعة علمه، و قوّة فكره، و بلاغته و فصاحته.

۱- *يتيمة الدهر*، ۱۵۵/۳.

۲- *مصادر و أسانيد نهج البلاغة*، للعلاّمة المرحوم السّيد عبدالزهراء الحسيني الخطيب.

نستهلّ هذه الدراسة بوقفة عند الظاهرة السياسيّة بصورة عامّة. تليها تأمّلات في الشعر السياسي، ثمّ ننتقل الى لمحة عابرة تخصّ ترجمة الشاعر، يتبع ذلک حديث عن الظاهرة السياسيّة في شعره، و هو مانتناوله بشيء من التفصيل علّنا نعبّر عن نزر من الوفاء لهذه الشخصيّة الكبيرة الّتي و هبت للحياة مايزيّنها، و للامّة مايمدّها حضاريّاً. و عسى أن نستوعب الظاهرة السياسية الملحوظة في شعره من خلال التعرّف على طبيعتها، و موضوعها، و أسبابها، و كلّ مايتّصل بها.

الفصل الاوّل

وقفة عند الظاهرة السياسيّة بصورة عامّة

يحسن بنا أن نتعرّف على الظاهرة السياسيّة بنحو عام. ماذا تعني؟ و ماهي مواصفاتها؟ و قبل البدء بهذا الموضوع، نلمّ المامة سريعة بمدلول السياسة و مفهومها.

قال الفيروزآبادي: سست الرعيّة سياسة: أمرتها و نهيتها[۱].

و قال ابن حجر: يسوس: أي: يتعّهد الشيء بما يصلحه[۲].

و قال ابن منظور: السوس: الرياسة. يقال: ساسوهم سوساً. و اذا رأسّوه، قيل: سوّسوه و أساسوه. و ساس الامر سياسة: قام به. وسوّسه القوم: جعلوه يسوسهم.

و في الحديث: (كان بنو اسرائيل يسوسهم أنبياؤهم) أي: تتولّى اُمورهم كما يفعل الامراء و الولاة بالرعيّة. السياسة: القيام على الشيء بما يصلحه[۳].

و منه يتبيّن انّ السياسة تعني تحمّل مسؤوليّة الرئاسة لتحقيق الاصلاح بين الناس باصدار الا وامر و النواهي[۴].

۱- *القاموس المحيط*، فصل الشين، باب السين، ط ۲، ۱۳۴۴ هـ ص ۲۲۲، *لمحات من الفكر السياسي* بقلم نخبة من العلماء و المفكرين، ص ۱۱.

۲- *تفسير غريب الحديث*، دارالمعرفة، لبنان، ص ۱۲۷ ؛ *لمحات*،...، ص ۱۱.

۳- *لسان العرب*، دار صادر، المجلّد السادس، ص ۱۰۸.

۴- *لمحات من الفكر السياسي*، بقلم نخبة من العلماء و المفكرين، ص ۱۲.

و تتعدّد الآراء المطروحة حول مفهوم السياسة. فثمّة من يذهب الى انّ السياسة هي فنّ الحكم، مثل سقراط الّذي يقول: هي فنّ الحكم، و السياسي هو ذلك الّذي يعرف فنّ الحكم. و يعرّفها افلاطون بأنّها فنّ تربية الافراد في حياة جماعيّة مشتركة، أو هي العناية بشؤون الجماعة، أو فنّ حكم الافراد برضاهم. والسياسي هو الّذي يعرف هذا الفن. و يراها ارسطو انّها علم السلوك الجماعي.

و هناك من يرى انّها صراع على الحكم كمو غثثاالّذي يقول: انّ السياسة هي الكفاح للحصول على السلطة. و فريق يحسب السياسة نفوذاً سلطوياً، و منهم لاسويل الّذي يعرّفها قائلاً: هي دراسة النفوذ و النافذين. و جماعةترى انّ السياسة فنّ اداري كما يقول هاتزفلد و دار مستتر انّها فنّ إداري، طريقة ادارة كلّ مايعود للشؤون العامّة.

و الشائع لدى الكثير من الناس انّ السياسة هي فنّ المكر و المساومة و التسوية. ولكن برنارد كريک ينقل صراحة عن ديزرائيلي قوله: (انّ السياسة هي فنّ حكم البشر عن طريق خداعهم)[1].

و يستبين لنا من هذا كلّه انّ الظاهرة السياسيّة هي كلّ ما يتصّل بالسياسة و شؤون الحكومة والحاكمين. و اذا ما ارتبطت بالجانب الادبي، فانّ الادب يعبّر عنها شعراً أونثراً. وقد تكون هذه الظاهرة سلبيّة أو ايجابيّة. و قد تتّسم بالنزاهة و الصدق أو لاتتّسم. و قد تترجم أنّات المحرومين و المعذّبين. و قد تنفخ الحكّام فتضاعف كبرياءهم و استعلاءهم و غرورهم باسلوب ملؤه التملّق و التزلّف بعيداً عن الحقّ والحقيقة.

و ترتبط الظاهرة السياسية بالادب ارتباطاً وثيقاً لاسيّما اذا عرفنا انّ مؤرّخي الادب دأبوا على تقسيم عصور الادب العربي تبعاً للعصور السياسيّة، ممّا يشير الى العلاقة الوطيدة بين الادب و السياسة، و ان كان هذا التقسيم لايخلو من مؤاخذات يطول الحديث عنها.

فالظاهرة السياسيّة في الادب تعني كلّ ماقيل من شعر أو نثر في مجال

١- *لمحات من الفكر السياسي*، بقلم نخبة من العلماء و المفكرين، من ص ١٣ الى ص ١٧.

السياسة على صعيد الحكّام و من يرتبط بهم، أو المعارضين للحكومات و أتباعهم، أو الاحداث السياسيّة الّتي حفلت بها العصور المتنوّعة.

فاذا منا دراسة الظاهرة السياسيّة في الادب العربي، فلا بدّلنا أن نستقصي كلّ مايتّصل بها من موضوعات و أحداث و وقائع حتّى نتوفّر على صورة مشرقة تعكس لنا تلك الظاهرة بجلاء و وضوح.

الفصل الثاني
تأمّلات في الشعر السياسي العربي

يذهب بعض المؤرّخين الى انّ الشعر السياسي بوصفه فنّاً من الفنون الشعريّة ظهر في العصر الاموي. الاّ انّ الصحيح هو انّه كان موجوداً قبل هذا العصر، بيد انّ تبلور بعض الاتجّاهات السياسيّة و ظهورها على المسرح السياسي، وكثرة ما قيل من الشعر في المجال السياسي، و تغذية الخلافات و الانشقاقات من قبل الجهاز الاموي المتسلّط، هي الّتي تنسجم مع طبيعة هذا العصر. و لعلّها هي الّتي دفعت اولئك المؤرّخين الى القول بظهوره في هذا العصر.

فالشعر السياسي ظهر حيثما كان هناك شعراء و كانت حكومات تبسط سيادتها على بعض الارجاء، مع أحداث سياسيّة تطرأ بين الحين و الآخر.

الشعر السياسي هوالشعر الّذي قيل في مدح الساسة و من دار في فلكهم، أوهجائهم، أو مدح المعارضة و المعارضين السياسيّين، أو دعوة الناس الى الثورة على الحاكمين، أو تأييد فكرة سياسيّة أو دحضها. والشاعر السياسي هو الشاعر الّذي يعبّر عن ظروفه السياسيّة الّتي يعيشها من وحي ما يؤمن به ويتّكىء عليه من أفكار. و هو إمّا أن يكون رساليّاً فيكون هادفاً نزيهاً. وَ إمّا أن يكون متكسّباً، فيغدو ضائعاً ضالّاً مستجدياً.

و من المستحسن أن نلقي نظرة عامّة على الشعر السياسي بوصفه فنّاً شعريّاً له مواصفاته الخاصّة به.

عندما نتأمّل الشعر السياسي في العصر الجاهلي نجده يمثّل الملامح الاولى في هذاالمجال. و يتّسم بقلّته، و بساطته، وكونه لايمثّل غرضاً مستقلاًكما في العصر

الاسلامي و ماتلاه. وعلى الرغم من عدم وجود نظام سياسي يسود الجزيرة العربيّة، الاّ انّ النظام القبلي الّذي كان مسيطراً يومئذٍ يماثل - نوعمّا - النظام السياسي بمعناه الشائع هذا اليوم. و ما قيل في النظام القبلي يمكن أن ينطبق على النظام السياسي.

فمدح زهيربن أبي سلمى للرجلين الّلذين بذلا جهودهما لعقد الصلح بين عبس و ذبيان يمثل مدحاً لشخصيتين سياسيّتين توسّطتا للصلح بين بلدين متحاربين[١]! علماً بأنّ نظاماً سياسيّاً كان قائماً في الامارتين الشماليتين: الحيرة و غسّان آنذاك.

و يتجسّد الشعر السياسي في هذا العصر بمدح الحكّام فقط مدحاً تكسّبيّاً من أجل المال، كما نجد في مدائح النابغة الذبياني، و الاعشى، على الرغم من انّ النابغة قد اتّصل بالغساسنة حرصاً على مصلحة قبيلته حتى يضمن لها الامن و الاستقرار[٢]. و أمّا الشعر السياسي في العصر الاسلامي فقد كان ضعيفاً تبعاً لضعف الشعر عموماً، و ذلك بسبب وجود القرآن الكريم، والسنّة النبويّة و عدم مؤاتاة الظروف بأنواعها و ضروبها لقول الشعر. غير انّنا نلحظ شعراً سياسيّاً كثيراً نوعمّا تمثّل في دفاع الشعراء الاسلاميّين عن الرسالة الاسلاميّة ومدح النبّي الاعظم - صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، وهجاء المشركين. و أقطابه هم:

حسّان بن ثابت، و عبداللّه بن رواحة، و كعب بن مالك. و نجد في الصفّ المقابل: ابن الزبعرى، و ابن النابغة و من شاكههما. كانوا يقولون الشعر في هجاء النبي - صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الطعن بالرسالة الاسلاميّة، و ذمّ المسلمين.

و تحدّث القرآن الكريم عن الشعراء، و ذكر مواصفاتهم و ملامحهم. واستثنى منهم شعراء العقيدة الّذين يتّصفون بأربع صفات مهمّة في ضوء المنطق القرآني. و هي: انّهم ينشدون شعراً ايمانيّاً رساليّاً هادفاً (الاّ الّذين آمنوا). و ينظمونه من أجل خير الدّين والامّة، و إشاعة الفضيلة، و ترويج الأعمال الصالحة و الحثّ عليها (و عملوا الصالحات). و يصنعون الموقف الكريم الطّيب خدمة للحقّ (وانتصروا من بعد

١- يرجع الى معلّقته الميميّة في هذا المجال.

٢- *الشعر الجاهلي*، مراحله و اتّجاهاته الفنيّة، الدكتور سيّد حنفي حسنين، ص ٢٢٤-٢٢٧.

ما ظلموا). و يقولون الشعر العفيف و النزيه و المفيد (وذكروا اللّه كثيراً)[۱].

أمّا الشعر السياسي في العصر الاموي، فقد ظهر كفّن بارز بسبب الطابع السياسي المحترف الّذي اتّسمت به الدولة الاموية و ملوكها المتسلّطون. وكثر في هذا العصر تبعاً لتعدّد الاتّجاهات السياسيّة. فمثّل الاخطل، و جرير بلاط الامويّين. و مثّل الكميت بن زيدالاسدي مدرسة أهل البيت عليهم السّلام، و مثّل عبيداللّه بن قيس الرقيّات الحزب الزّبيري، و مثّل عمران بن حطّان حزب الخوارج المارقين. وهكذا نجدالشعر السياسي قد بلغ ذروته في هذا العصر بدفعه تشجيع الحكّام، و يرفده دفاع كلّ شاعر عن عقيدته و اتّجاهه. و كان وسيلة للدعاية السياسيّة الّتي تجسّدت في توطيد دعائم الحكم الوراثي المتسلّط، أو التحمّس لمناصرة حركة سياسيّة معارضة هي أحقّ من غيرها، كما في شعر الكميت، أو الدفاع عن تحرّكٍ مضادّ للسلطة كشعرابن الرقيّات أو عمران بن حطّان...

و على هذا النسق سارالشعر السياسي في العصور الاخرى، ولم يخرج عن تلك الاطر الّتي كان عليها في العصور المتقدّمة.

الفصل الثالث

لمحة عابرة عن ترجمة الشاعر

هو أبوالحسن محمّدبن الحسين بن موسى‌بن محمّد بن موسى‌بن ابراهيم‌بن الامام موسى‌بن جعفر المعروف بالشريف الرضّي. ولد ببغداد سنة ۳۵۹ هـ ينحدر من سلالة طاهرة شريفة هي سلالة أئمّة أهل البيت عليهم السّلام. إذ انّ جدّه الخامس هو الامام موسى الكاظم ـ عليه‌السّلام. و هذه غاية الفخر، و ذروة العزّ، و لباب الشرف، لانّ الانحدار من أرومة طاهرة تفرّدت بالفضائل و المناقب و المحامد شرف

۱- هذه الفقرة و ما قبلها من الفقرات الموضوعة بين قوسين أجزاء من الآيات القرآنيّة الواردة في سورة الشعراء: (والشّعراء يتّبعهم الغاوون. ألم‌تر انّهم في كلّ واديهيمون. وانّهم يقولون مالايفعلون. الاّ الّذين آمنوا و عملواالصالحات و ذكرواللّه كثيراً و انتصروا من ما بعد ظلموا...) الشعراء: ۲۲۴-۲۲۷.

لايضاهيه شرف و دون الفخر بها فخر المفتخرين بغيرها! و أنّى للفخر أن يستساغ الاّ بمن جعل اللّه أجرالرسالة مودّتهم!

ابتدأ بقول الشعر و هو لم يبلغ الحلم. و تلك ميزة تدلّ على نبوغ مبكّر و عبقريّة فذّة لم تتيسّر لكلّ أحد. ويراه الثعالبي انّه أشعر الطالبيّين، ولو قال انّه أشعر قريش لم يبعد عن الصدق[۱].

و عندما عرضوا على الدكتور زكي مبارك، أستاذ الادب العربي بمصر، أن يتحدّث عن أعظم شاعر في العربية، اختار الشريف الرضّي مطعّماً حديثه بالادلة و الحجج الدامغة[۲].

يقول الثعالبي: «هو اليوم أبدع أبناء الزمان، و أنجب سادة العراق. يتحلّى مع محتده الشريف، و مفخره المنيف، بأدب ظاهر، و فضل باهر، و حظٍّ من جميع المحاسن وافر»[۳].

فتح الشريف الرضي عينه في بغداد مركز الحضارة الاسلاميّة و مصدرالاشعاع. فعاش أجواء علميّة و حضاريّة قلّما تيسّرت لأحد. و قد تفاعل مع تلك الاجواء متأثّراً و مؤثّراً، و مستفيداً و مفيداً. متأثّراً و مستفيداً لأنّه أخذ العلم عن جهابذتها و نحاريرها يوم كانت تزخر بأفذاذ العلماء من أمثال الشيخ المفيد الّذي ملأ علمه الآفاق، و دان له العظماء في ميادين الكلام و الاحتجاج و المناظرة حتّى قال عنه ابن حجر: «لو أراد أن يبرهن للخصم انّ الاسطوانة من الذهب و هي من الخشب، لاستطاع»[۴]. و مؤثّراً و مفيداً لانّه اوتي نبوغاً مبكّراً ترجمه التراث العلميّ الثر المأثور عنه. و بصماته جليّة على شتّى الكتب الّتي ألّفها أو شرحها بعد جمعها. و منها: كتاب مجازات الآثار النبويّة، وكتاب حقائق التأويل في متشابه التنزيل، وكتاب تلخيص البيان عن مجازات القرآن، وكتاب الخصائص، وكتاب أخبار قضاة بغداد، و

۱- *يتيمة الدهر*، ۱۵۵/۳.

۲- *عبقريّة الشريف الرضّي*، الدكتور زكي مبارك، ج ۱، ص ۷.

۳- *يتيمة الدهر*، ۳ / ۱۰۰.

۴- *نظريات علم الكلام عندالشيخ المفيد*، تأليف مارتن مكدرموت، تعريب الكاتب، ص ۸.

نهج البلاغة جمعاً، و ديوانه الكبير الواقع في مجلّدين ضخمين[۱].

عاش الشريف حياته كلّها في بغداد و لم يتركها الاّ لحجّ بيت اللّه الحرام، إذ كان يقيم فترة في تلك الاماكن المقدّسة. و مرّت به أحداث كان لها وقع أليم على نفسه. و لعلّ أبرز تلك الاحداث اعتقال أبيه بقلعة فارس و الشريف كان لايزال صبيّاً. علماً انّ أباه كان يتولّى نقابة الاشراف الطالبيّين، و إمارة الحجّ بالناس، و النظر في المظالم. تلك الحادثة أقضّت مضجع الشريف و غيّرت مسير حياته حتّى شكى و تضجّر، و عبّر عن ذلك كلّه بقصائد تفيض لوعة، و تطفح أسىً إذ جسّدت ثورة العاطفة، و وثبة المشاعر و الاحاسيس.

و استاء الشريف ممّا صنع الحكّام بأبيه، و اشمأزّ من الدهر، و امتعض من جهلة الناس. و هذا الثالوث هوالّذي جعل طعم الحياة في فمه أمّر من العلقم، على الرغم من انّ محنة أبيه قد انتهت، إذا أُطلق سراحه فعادت الى الشاعر غبطته و ابتهاجه. و بعد وفاة والده، تصدّى لنقابة الطالبيّين و إمارة الحجّ. و ظلّ في هذين المنصبين و عاش الحياة بين إقبال و إدبار حتّى وافاه الإجل سنة ۴۰۶ هـ و له من العمر ۴۷ سنة.

الفصل الرابع
الظاهرة السياسيّة في مسبار الدراسة

ماذا نريد بالظاهرة السياسية في شعر الشريف الرضي؟ كيف نشأت و تطوّرت؟ ماهي المجالات الّتي تناولتها؟ من هم الساسة الذين مدحهم الشاعر أو هجاهم؟ ماهو منطلقه في ذلك؟ و ماهي البواعث الّتي أفضت الى انبثاق الظاهرة؟ ماهي مواصفات الظاهرة السياسيّة؟ و كيف نحلّلها؟ و هل كان الشريف محقّاً في توجّهاته السياسيّة؟ و ماهو التقويم الّذي يوائم نزعات الشاعر السياسيّة؟ و هل سجّل الشاعر موقفاً سياسيّاً معيّناً؟

أبدأ حديثي في هذا الفصل باثارة الاسئلة المذكورة الّتي تخامرني و أنا أتطلّع

۱- *الجامع في تاريخ الادب العربي*، ج ۱، ص ۸۳۳.

الى أجوبة قد أجد فيها ضالّتي، و قد لاتنقع أُوامي. مبتغياً من ذلک بلورة الكلام عن هذا الموضوع لعلّه يُرضي الطموح، و يفي بالغرض.

تتجسّد الظاهرة السياسيّة الملحوظة في شعر الشريف الرضي بما نظمه من شعر على صعيد المدح أو الهجاء متناولاً فيه السلاطين العبّاسيّين و من سار في ركابهم. أو متطرّقاً الى غيرهم ممّن كانت له علاقة بالشؤون السياسيّة. و ربّما تكلّم عن أحداث سياسيّة وقعت في عصره أو سجّل موقفاً سياسيّاً معيّناً من تلک الأحداث.

و تعبّر الظاهرة السياسيّة في شعر الشريف عن الظروف الدقيقة الّتي كان يعيش في مناخها، و قد نقلتها لنا كتب التاريخ، و التاريخ لايطمئنّ اليه في كلّ منقولاته لأسباب كثيرة لامجال هنا للخوض فيها. بيد أنّ المتّفق عليه في مايخصّ موضوعنا هذا هو انّ الشريف الرضي قد تفاعل مع الشؤون السياسيّة في عصره، و كان على صلة وثيقة بها. و قد يتميّز بهذه الصفة على غيره بحكم ماكان يضطلع به من مهامٍ سياسيّة إذا صحّ التعبير.

و بدأت بواكير الظاهرة السياسيّة في شعر شاعرنا المترجم له مع نفي أبيه السيّد أبي احمد الموسوي و ايداعه في غياهب الاعتقال بقلعة فارس. إذ نقم عضدالدولة البويهّي عليه أشياء دعته الى المبادرة باعتقاله و مصادرة أملاكه.

وكان يتولّى ثلاث مهامّ رئيسة هي: نقابة الطالبيّين، و امارة الحجّ، و النظر في المظالم. ولايعنينا هنا أن نتحدّث عن هذه الحادثة الّتي نقلها لنا التاريخ بقدر ما نسجّل عنها انّها ذات ارتباط حميم بالظاهرة السياسيّة، موضوع بحثنا، إذ هي الباعث الاوّل على نشوء الظاهرة السياسيّة في شعر الشريف الرضّي لما تركته من أثر على نفسيّته ترجمه من خلال الاشعار الّتي نظمها في هذا الموضوع.

و حسبنا أن نعرف انّ الشريف كان يرى أباه صباحاً و مساءً و هو ملاذ المكروبين، و مأوى المنقطعين، و ثِمال الملهوفين. و يرى أساتذته يبالغون في إكرامه لانّه ابن النقيب. و اذا هو يفاجأ بهذه النكبة المرّة الّتي أفضت الى تجريد أبيه من الحَول و الطَول، و القائه في دياجير السجن. غيرانّ هذه الحادثة، و إن كانت مشؤومة على الشريف الرضّي، فانّها أيقظت مشاعره، و أرهفت أحاسيسه، فتمخضت بالظاهرة السياسيّة.

و في هذا الميدان نجد الشريف، و هو فتى يافع، يمدح أباه بأكثر من أربعين قصيدة متنوّعة بين التوجّع لأبيه و هو سجين، و تهنئته بالخلاص و ردّ أملاكه اليه، و تهنئته بالأعياد(۱).

و أوّل قصيدة خاطب بها أباه جاءت كردّ فعل لعبارة نابية أطلقها المطّهر بن عبدالله وزير عضدالدولة البويهيّ حين قبض على أبيه، و حمله الى فارس، إذ كانا في مجلس، فقال له الوزير: كم تدلّ علينا بالعظام النخرة! (عظام أهل البيت - عليهم السّلام) فقال هذه القصيدة و سنّه فوق العشرين بقليل. و مطلعها:

نُصافي المعالي، و الزّمان معاندٌ و ننهض بالآمال، و الجَدُّ قاعِدُ(۲)

و قال فيها:

تُعيّر ربَّ الخير بالي عظامه ألا نُزّهت تلك العظامُ البوائد
ولكن رأى سبَّ النَبيِّ غنيمةً وماحوله الاّ مريبٌ و جاحدُ
و لوكانَ بين الفاطميّين رفرفت عليه العوالي والظُّبى و السّواعدُ(۳)

و تطرّق فيها الى مهامّ أبيه الثلاث فقال:

و ما والدٌ مثلُ ابن موسى لمولدٍ قريب تجاناه الرجالُ الأباعدُ
حمى الحجّ و احتلّ المظالم رُتبةً على انّ ريعانَ النقابة زائدُ(۴)

و تطوّرت الظاهرة السياسيّة متدرّجة من التذمّر و الشكوى بسبب ماحلّ بأبيه. و اصّاعدت بنفس النسق، حتّى اذا افرج عن ذلك الوالد الكبير، اتّخذت طابعاً آخر استهلّه الشاعر بمدح الملك الّذي أصدر الاوامر باطلاق أبيه. و هكذا تواصلت القصائد تلو القصائد مدحاً و تبجيلاً و تعظيماً للسلاطين و الملوك و الوزراء في المناسبات الدينيّة و غيرها. لنسمعه و هو يخاطب شرف الدولة، الملك الّذي أنقذ أباه من الاعتقال:

۱- *عبقريّة الشريف الرضّي*، الدكتور زكي مبارك، ج ۱، ص ۱۰۷.

۲- *ديوان الشريف الرضى*، ۱ / ۳۰۵.

۳- *نفسه*، ص ۳۰۷.

۴- *الديوان*، ۱ / ۳۰۹.

هذا أبي و الّذي أرجو النجاح به أدعوه منک طليقَ الهمّ والجذلَ
و أنت طوّقته بالمنّ جامعةً قامت عليه مقام الحلي و الحللِ (١)

الى أن قال:

ولاتطيعنَّ فيه قول حاسده انّ العليل ليرمي الناس بالعلل
أولى بتكرمة من كان يحمدها والحمد يقطع بين الجود و البخلِ (٢)

و بلغت الظاهرة السياسية اوجها عند ما قلّد الشريف الرضي إمارة الحجّ، و فوّضت اليه نقابة الطالبيّين، و النظر في المظالم. و هذه مناصب ورثها عن أبيه الّذي توفّي سنة ۴۰۰ هـ و كانت تلك المناصب على درجة كبيرة من الأهميّة بسبب ما تتطلّبه من كفاءة و اقتدار، و ما تستلزمه من القيام بنشاطات و أعمال سياسيّة و اجتماعية و دينيّة تشغل حيّزاً كبيراً من الاهتمام.

لقد عاصر الشريف ثلاثة من السلاطين العبّاسيين هم: المطيع، و الطائع، والقادر. الاّ انّه كان طفلاً في عهد المطيع فلا يعنينا من ذلک شيء. و ما نلتفت اليه هنا هو المرحلة الّتي تلت عهدالمطيع. و كان سلطان بني العبّاس آنذاک سلطاناً دستوريّاً كما نصطلح عليه اليوم، إذ انّ الحكومة الحقيقيّة كانت بيد الديلم، والسلطان أداة مسيّرة بأيديهم.

تناولت الظاهرة السياسية مدح السلاطين و الملوک و الوزراء أوشكرهم و تهنئتهم ؛ و هجاء بعض الشخصيّات السياسيّة لأسباب خاصّة ؛ والثناء على مواقف سياسية كريمة صنعها بعض الشخصيّات المعروفة يومئذ؛ و تسجيل بعض الأحداث السياسيّة ؛ و فخراً سياسيّاً متميّزاً.

وربا مجموع قصائده السياسيّة على التسعين. منها ١٧ قصيدة في الطائع، و قصيدتان في القادر، و الباقي في المجالات المذكورة آنفاً، نحو: مدح الملک بهاء الدولة، و الملک قوام‌الدّين، والوزير أبي علي الحسن‌بن احمد، والموفّق باللّه وزير بهاء الدّولة، وغيرهم. ومعظم هذه القصائد أنشد في مناسبات دينيّة و وديّة.

١- **نفسه**: ٢ / ١٣٠؛ **عبقرية الشريف الرضي**، ١ / ١١٧.

٢- كذلک، ٢ / ١٣١ ؛ **نفسه** ١١٨/١.

قال في مدح الطائع و هو يهنّئه لمناسبة عيد الأضحى:

جـــزاءُ أمـــيرالمـــؤمنين ثـــنائي على نِـعَمٍ مـاتنقضي و عـطاءِ[۱]

و قال فيها:

أبـــثّك مـــن ودّي بـــغير تكـلّف و ارضـيك مـن نُصحي بـغير رياءِ
و أذكـر مـا أوليـتني مـن صـنيعةٍ فـــأُصفيك رهـني طـاعة و وفـاءِ
أعـنّي عـلى دهـر رمـاني بـصرفه وردّ عـــناني، و هـو فـي الغُـلَواءِ
و حَـــلّأني عـــمّن أعـــدّ بـــعادَهُ سَـقامي و مـن قُـربي اليـه شفائي
فـــلا تـــطمعنْ يـادهرُ فـيّ فـإنّه مـــلاذيَ مـــمّا راعـني و وقـائي
أردّ بـــه أيـدي الاعـادي، وأتّـقي نـوافـذ شـتّى مـن اذىً وبـلاءِ[۲]

نلحظ الشاعر هنا يعبّر عن ودّه للسلطان العبّاسي، و يسمّيه أميرالمؤمنين، و يستنجده على الدهر، ويرى فيه ملاذاً له من عواديه و غواشيه. و قال في مدح القادر حين استقرّ في دار الحكومة:

شَرفُ الخلافة يابني العبّاسِ اليوم جدّده أبـو العبّاسِ[۳]

و منها قوله:

مـــجدٌ، أمـــيرالمـــؤمنين، أعـدته غـــضّاً كـــنور المـــورق المـــيّاسِ
و بـعثت فـي قـلب الخلافة فرحة دخلت على الخلفاء في الارماسِ[۴]

و قال في آخرها:

انّـــي لأجـتنبُ السـؤال مُـتاركاً خـــلفاً يـــدرّ عـــليّ بـالإبساسِ
ولقـد أطـعتك طـاعة مـارامـها مـــنّي امـرؤ الاّ عـصاه شـماسي
فـــرّت اليك بـــغير داع هـــمّتي وصـــغا اليك بـلاقياد رأسـي[۵]

۱- *الديوان*، ۱ / ۹.
۲- *الديوان*، ۱ / ۱۲.
۳- *الديوان*، ۱ / ۵۴۶.
۴- *نفسه*، ۱ / ۵۴۸.
۵- كذلك، ۱ / ۵۴۹.

يطلق الشاعر على السلطة العبّاسيّة اصطلاح (انخلافة) و الخلافة مصطلح اسلامي يعني النيابة عن النبّي - صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و لعلّ اطلاقه لهذا الاصطلاح غفلة منه، أو مجاملة، أو تكيّفاً مع مجريات الامور، و ذلک لورود الحديث النبويّ المشهور، و مضمونه: الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثمّ تكون ملكاً عضوضاً. و نستشفّ منه عدم اطلاق لقب الخليفة على الأمويّين و العبّاسيّين مطلقاً.

و يسمّي القادر أميرالمؤمنين أيضاً. و يبدو انّ هذا الاصطلاح كان متداولاً يومئذٍ، على الرغم من التحفّظ الّذي قد يعرض في مثل هذه التسميات.

و في الابيات الثلاثة الأخيرة يصف نفسه بالاباء عن السؤال، و طاعته للسلطان طاعة لايطمع فيها غيره، و لاسبيل له اليها. فهذه الطاعة هي طاعة من نوع خاص كان يمليه المناخ السياسي السائد. والاّ فانّه لايطوّع نفسه لطاعة أيّ كان، بل يطوّعها لطاعة من يجد في طاعته ضالّته خدمة لأغراض سياسيّة قد لايرجو من وراءها مصلحة له.

و هذا كلّه يدلّ على انّ الظاهرة السياسيّة قد صدرت عن طواعية نقيّة من شوائب القسر والاكراه.

و قال في القادر قافيّته المشهورة الّتي ضمّنها بهذه الابيات المتداولة على الالسن:

عطفاً أميرالمؤمنين فانّنا ... في دوحة العلياء لانتفرّقُ
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً كلانا في المفاخر[1] مُعرقُ
الاّ الخلافة ميّزتک فانّني ... أنا عاطل منها و أنتَ مطوّقُ[2]

و فيها انجذم حبل وصاله بالسلطان العبّاسي إذ أثار حفيظة القادر و أزعجه، حتّى قال: على رغم أنف الشريف! ممّا أفضى ذلک الى افتراقهما، و صدوف الشريف عن مدح القادر، و جنوحه الى الوزراء و الملوک لمدحهم.

و إن دلّ هذا على شيءٍ فانّما يدلّ على إباء الشريف و عزّته و شممه. كذلک

۱- وجاء في نسخة: المعالي.

۲- *الديوان*، ۲ / ۴۲.

فانّه يعكس نظافة الظاهرة السياسية من أدران الوصوليّة، و النفعيّة، و التملّق و التزلّف، و المجاملات الزائفة.

و لنا أن نسجّل هنا ملاحظة حول كثرة قصائدة في الطائع و قلّتها في القادر. فانّ هذا يتمّ عن توجّهات سياسيّة سليمة تلتقي والاجدر بالمدح. و لاتتوائم مع السلطان بما هو سلطان، بل تتوائم مع السلطان بما هو انسان يحسن الصنيع. و لعلنّا لانجانب الصواب اذا قلنا انّ علاقات شعراء البلاط بالحاكمين هي علاقات العبيد بأسيادهم. أمّا علاقة الشريف فهي تترفّع و تتعالى عن تلك الدنايا، لأنّه لايتعامل مع السلطان بوصفه سيّداً و وليّاً لنعمته، بل يتعامل معه معاملة الندّ للندّ بنَفَسٍ علوّيٍ شامخ. بخاصّة، و قد أجمع مؤرّخو الادب على نزاهته و استقامته و لم ينبزوه و لم يقدحوا فيه.

و عندما لقّبه الملك بهاء الدولة بالرضي ذي الحسبين، قال يمدحه و يشكره:

رأينا المُلكَ من بأس ... كَ قد دار على القُطبِ
قضى اللّه لرايا ... تِكَ بالاظهار و الغَلبِ
و أصفاك بملك الارْ ... ضِ من شرقٍ الى غربِ
رفعتَ اليوم من قدري ... و اوطأتَ العِدى عَقْبي
و وطّأتَ لِيَ الرحلَ ... على عرعرةِ الصعبِ[1]

نلمس هنا مدحاً بعيداً عن الاسفاف و التدنّي، و الغلّو و المغالاة و نقرأ فيها دور ذلك الملك في تحقيق طموح الشاعر، بخاصّة يطالعنا البيتان الأخيران في هذه القصيدة، و هما:

و أرضاني على الأيّا ... م بعد اللّوم والعتب
و أعلى المدحِ مايثني ... به العبدُ على الربِّ[2]

و قال يمدح الوزير أبانصر سابور بن اردشير و قد قدم مع شرف الدولة الى بغداد:

۱- *الديوان*، ۱ / ۵۴، ۵۵.

۲- *نفسه*، ۱ / ۵۶.

مـــانال مـــدحي أبـــونصربنائلةٍ ولابســـلطان تـــرغيبٍ و تـــرهيبِ
الاّ بشـــــيمة بسّـــام و تكـــرمةٍ غـــرّاء تـــعدل عـندي كـلّ مـوهوبِ
أنت المـــعين عـلى أمـر تـصاوله و حـــاجة شـــافهتنا بـالاعاجيبِ
و مـثل سـمعكَ يـدعوه الى كـرمٍ قـــولٌ تشـــيّعه أنـفاس مكـروبِ
يـاخير مـن قـالَ بلّغْ خير مستمع عنّي و حسبُك من وصفٍ و تـلقيبِ
لولاک يـا مـلک الاملاک سال بـنا مـــن النـوائب عـرّاص الشآبـيبِ
زجرتَ عـنّا الليالي، و هـي رابضة تـــقرو بأنـــيابها عَـقرَ المـخاليبِ
أرعـــيتنا الكـلاِ المـمطور نـنشطه نشط الخمائلِ بعد المربع الموبي
فكـنتَ كـالغيثِ مسَّ المـحلَ رَيُّقة فـهذّبَ الارض مـنه أيَّ تـهذيبِ[1]

الشاعر هنا لاينطلق في مدائحه من منظار العطاء و الترغيب و الترهيب، بل من منظار تثمين الموقف الصحيح، و تقدير التوجّه السويّ اذ انّ الملک قد وضعه في موضعه اللائق به، فلا بدّ للشاعر من شكر هذه العارفة من وحي منطق الانصاف. و لا يُستحسن من رجل جليل كالشريف كفر انَ النعم، بخاصّة اذاكان الممدوح قميناً بأن تنثر الحلل عليه، وكان المادح حريصاً على مبدئيّته غير منفلت انفلاتاً مفرّطاً لايقيم للمُثُل وزناً!

بيد انّنا ينبغي أن نقف هنا لنرى هل كان نَفَس الشريف الرضّي في مدحه للسلاطين متواصلاً؟ فما طالعناه يفيدنا انّه ليس كذلک. لانّه عاتب الطائع مرّة، فقال له من قصيدة نونيّة، مطلعها:

وَ نَمى إليّ من العـجائب انّـه لعبت بعقلک حيلة الخوّانِ[2]

و خاطبه فيها قائلاً:

فـــالآن مـنک اليأسُ يـنقع غـلّتي واليأس يـــقطع غـــلّة الظـمآنِ[3]

وجاء فيها قوله:

۱- *الديوان*، ۱ / ۶۳.
۲- *الديوان*، ۲ / ۵۲۱.
۳- *الديوان*، ۲ / ۵۲۱.

فـــاحذر عـــواقب مـــاجنيتَ فـربّما
رمت الجـــنايةُ عُـرض قـلب الجـاني

أعـــطيتک الرّأي الصـــريح و غـــيره
تـــــنسابُ رغـــوته بـــغير بـــيانِ

و عـــرضت نُـصحي والقـبول إجـازة
نـــاذا أبـــيتَ لويتُ عـــنک عـنايي

و لقـد يـطول عـليک أن أُصـغي الى
ذكـراک، أو يـثني عـليک لسـاني[1]

نلمس هنا جرأة و شجاعة لم يعوّدنا عليها شعراء المديح السياسي، كما نلمس شخصيّة رفيعة عليّة تشير، و تنصح، و تميل بوجهها عند تعنّت المنصوح. فالقضيّة هنا هي أكبر من (قضيّة شاعر يمدح حاكماً). و أتمثّل الشريف هنا رجلاً يتحدّى دون و جل، و يوجّه تعاليمه دون تلعثم.

و نقرأ مثالاً آخر يدلّنا على عدم إدمان الشاعر على مدح اولئک السلاطين. فهو يقول تعريضاً بحكومة القادر:

ما مقامي على الهوان و عـندي ... مـقولٌ صـارم و أنـف حـميٌّ
و إبـاءٌ مـحلّق بـي عـن الضّيـ ... ـم كـما راغ طـائر وحشـيٌّ
أيُّ عـذرٍ له الى المـجدِ إن ذلّ ... غـلامٌ فـي غِـمده المشـرفيُّ
ألبس الذلّ في ديـار الأعـادي ... و بـمصر الخـليفة العـلويُّ
مَـن أبـوه أبـي و مـولاه مـولا ... يَ اذا ضـامني البـعيد القصيُّ
لفّ عـرقي بـعرقه سـيّدالنـا ... سِ جـميعاً مـحمّدٌ و عـليُّ
انّ ذلّـي بـذلک الجـوّ عـزٌّ ... و أُوامـي بـذلک النـقع ريُّ
قـديذلُّ العـزيز مـالم يشـمّر ... لانـطلاقٍ و قـد يُـضام الأبـيُّ
انّ شـرّاً عـليّ إسـراع عـزمي ... في طِلابِ العُلى و حظّي بطيُّ
أرتضي بالاذى ولم يـقف العـز ... مُ قـصوراً ولم تـعزّ المـطيُّ

۱- *الديوان*، ۲ / ۵۲۱، ۵۲۲.

تاركاً أُسرتي رجوعاً إلى حيـ ثُ عذيري قدٌّ و رعىٌ و بيٌّ
كالّذي يخبط الظلام و قد أقـ مرمن خلفه النهارُ المضَيُّ(١)

ماذا نقرأهنا؟ نقرأ ثورةً على السلطان، و رفضاً للهوان، و إباءً عن الضيم، و عزّاً يذيب الذلّ. و تترجم لنا هذه الابيات حدّة الصراع بين الفاطميّين في مصر و العبّاسيّين في العراق. و لايحلو للشاعر أن يناصر العبّاسيين في هذا الصراع مع انّه يعيش في مُناخ يسيطر عليه العبّاسيّون.

و تنبئنا هذه الابيات، الّتي هي في غاية الروعة، عن مايختزنه الشاعر من آراء حيال الدولة العبّاسيّة. و تحكي لنا عدم اكتراثه بهيبة السلطان الوهميّة. و أخطر شعر قاله فى التعريض بسلاطين بني العبّاس هو ما نقرأهُ في هذه السطور:

أمـا تحرّك للأقـدار نابضة أمـا يُغيَّر سلطانٌ و لا ملكٌ؟
قد هادن الدهرُ حتّى لاقراع له و أطرق الخطب حتّى ما به حَرَكٌ
كُلٌّ يفوت الرزايا أن يقعن به أمـا لأيدي المنايا فيهم درکٌ
قد قصّر الدهرُ عجزاًعن لحاقهم فأين أين ذميلُ الدهر و الرتکٌ
أخلّت السّبعة العليا طرايقها أم أخطأت نهجها أم سُمّر الفلکٌ؟(٢)

هذه محطّات ثلاث تكشف لنا حقيقة الشاعر، و تقشع غمائم الغموض عن توجّهاته و انطباعاته، و تعرّفنا على طبيعة الظاهرة السياسيّة أكثر فاكثر.

فهذا هو المجال الاوّل الّذي تناولته الظاهرة السياسيّة في شعر شاعرنا الرضّي. و يترجم لنا هذا المجال اهتمام الشاعر بالمديح السياسي مع تحفّظ و تريّث، و انقطاع في بعض الأحيان. و الشاعر هنا بعيد عن التكسّب و الاستجداء. و ظلّ على سمّو شخصيّته و عزّة نفسه.

أمّا المجال الثاني فانّه يتناول هجاء و ذمّ بعض الشخصيّات السياسيّة، كقوله و قد بلغه عن رجل من الطالبيّين ذكره في معنى النقابة:

قل للعِدى موتوا بغيظكم فـانّ الغيظَ مُردي

١- *الديوان*، ٢ / ٥٧۶.

٢- *الديوان*، ٢ / ١١٠؛ *عبقريّة الشريف الرضّي*، ١ / ٢٣.

ودعـــوا عُـلـيً أحـرزتُها، يـاوادعين بطول جُهدي
كـم بـين أيـديكم، و بين النـجم مـن قُـربٍ و بُـعدِ
وَليَ النـــقابة خـــال أُ مّي قبلُ، ثـمّ أبـي وجـدّي
وُليّـــتها طـــفلاً، فـــهل مجدٌ يُعدَّدُ مثلَ مـجدي[۱]

و نطالع مثالاً آخر في هذا المجال، و هو قوله في موت المطّهر بن عبداللّه وزير عضدالدولة «وقد شمت الشريف في موت ذلک الوزير الّذى اعتقل أباه و عيّره الادلال بالعظام النخرات، عظام أهل البيت»[۲].

ظـنّ بـالعجز انّ حبسک ذلٌّ والمـواضـي تُصان بـالاغمادِ
قـصّر الدهـر مـن ذراه و قـدکا نَ بتلکَ الظبا طـويل النـجادِ
وأذلّ الزمـان بـعدک عِـطفيـ ـهِ و قد کان من أعزّ العبادِ[۳]

و في المجال الثالث نلتقي الشريف شاعراً منصفاً قد سجّل مواقف سياسيّة مشكورة لبعض الشخصيّات من المتقدّمين أو من المعاصرين.

فلمّا تلافى والده الفتنة بين أتباع مدرسة أهل البيت - عليهم السّلام، و غيرهم من عامّة المسلمين، سجّل ابنه ذلک الموقف الصالح، فقال:

و خَطبٍ على الزوراءِ ألقى جِرانـه مـديد النـواحـي مـدلهمّ الجـوانبِ
و أضـربها حـمراء يـنزو شـرارهـا الى جـنباتِ الجـوّ نـزو الجـنادبِ
و أقشعتَ عـن بـغداد يـوماً دويّـه الى الآن باقٍ في الصّبا و الجـنائبِ
و لولاک عُـلّي بـالجماحِم سـورها و خُندِقَ فيها بـالدماء الذوائبِ[۴]

و هـزّه مـوقف الـسلطان عـمربن عـبدالعـزيز المـتمثّل بـرفع السبّ عـن أميرالمؤمنين عليّ بن أبي‌طالب - عليه‌السلام. ذلک الموقف الطيّب الكريم الّذي جسّد ثورة على سنن امويّة جاهليّة بالية، و نسفاً لعادة مشينة سيّئة دأب عليها أحفاد

۱- *الديوان*، ۱ / ۳۵۸.

۲- *عبقريّة الشريف الرضي*، ۱ / ۱۱۸.

۳- *نفسه*، ۱۱۹؛ *الديوان*، ۱ / ۲۹۹.

۴- *الديوان*، ۱ / ۹۱.

أبي سفيان المتحجّر، و مروان الوزغ نجل الطريد! و ماذا فعل عليّ بن أبي طالب حتّى يجازى بالسبّ على الاعواد الّتي قامت بسيفه؟

و تلك المنابر الّتي نزا عليها الامويّون المرتدّون كنزو القردة تصبح أبواقاً لسبّ من أذهب اللّه عنه الرجس و طهّره، و جعل أجر الرسالة مودّته، و جعله نفس نبيّه في المباهلة، بل هو من النبيّ و النبيّ منه كما صرّح بذلك البخارى على تعصّبه. يا للحسرة القاتلة الدامية أن يسبّ عليّ أكثر من ثمانين سنة على المنابر!

أجل، ثار عمر بن عبدالعزيز على تلك السنّة البغيضة، فلا بدّ للشريف، و هو حفيد عليّ بن أبي طالب، أن يسجّل ذلك الموقف الرائع، و حريّ به أن يخاطبه فيقول:

يا ابنَ عبدالعزيز! لو بكت العبـ ـنُ فتىً من اُميّة لبكيتُكْ
غير أنّي أقولُ إنّك قد طبـ ـتَ، و إن لم يطبْ و لم يزكُ بيتُكْ
أنتَ نزّهتنا عن السّبّ و القذ ـف، فلو أمكن الجزاءُ جزيتُكْ
ولو انّي رأيتُ قبرك لاستحـ ـيتُ من أنْ اُرى و ما حيّيتُكْ
و قليلٌ أن لو بذلتُ دماء الـ ـبُدنِ حُزناً على الذُرى و سقيتكْ
ديرَ سمعانَ[1] لا أغبّك غادٍ خيرُ ميتٍ من آل مروان ميتُك[2]

صورة رائعة ماثلة أمامنا تمثّل صلاح ذلك السلطان الفقيد، و وفاء الشاعر له. و جدير بتلك المواقف أن تخلّد! و حقيق بهذا الشعر أن يُنشد!

و تناولت الظاهرة السياسية تسجيل بعض الاحداث السياسيّة الّتي سبقت عصره أو وقعت أيّام حياته، غير انّها قليلة إذ اماقيست بالمجالات الأُخرى. فقصائده في رثاء جدّه سيّدالشهداء أبي عبداللّه الحسين ـ عليه السلام ـ قليلة لم تتجاوز الخمسة. و قلّتها تبعث على العجب. كما انّه لم يسجّل بيعة الغدير التاريخيّة بصراحة في شعره. و كان خليقاً به أن يفعل ذلك، بخاصّة و قد سنحت فرصة ذهبيّة له من

۱- دير سمعان بفتح السين و كسرها: دير بنواحي دمشق في موضع نزه، و بساتين محدقة به. عنده قصور و دور، و عنده قبر عمربن عبدالعزيز.

۲- *الديوان*، ۱ / ۲۱۵.

خلال استيلاء البويهيّين على السلطة ببغداد. و لو فعل ذلک لمنح الغدير زخماً قد لايتحفه به غيره. و كذلک لم يسجّل ثورات العلويّين و انتفاضاتهم ضدّ السلطات الحاكمة الغاصبة، أمويّة أو عبّاسيّة، مع انّ الائمّة المعصومين ـ عليهم‌السلام ـ قد باركوا بعضها. و لنا أن نعاتبه عتاباً وديّاً على تغافله و تناسبه جرائم العبّاسيّين بحقّ العلويّين كالمنصور، و هارون، و المتوكّل. و لاأدري هل ترک الشريف ذلک عمداً أو سهواً؟ و هل سمع الشاعر ماذا قال؟ قال:

تاللّه ما فعلت علوجُ اُميّة معشار ما فعلت بنوالعبّاسِ!

و قالَ الآخر:

يا ليت جورَ بني مروان دام لنا و ليت عدل بني العبّاسِ في النارِ

والشريف كان يعلم انّ العبّاسي الّذي يكيله مدحاً لايصل في الشأو و المجد الى الإمام المعصوم. و قد سجّل ذلک الشاعر المشهور المرحوم أبوفراس الحمداني، إذ قال في ميمّيته العصماء:

ليس الرشيد كموسى في القياس ولا مأمونكم كالرضا إن أنصف الحكمُ

و قد فصّل هذا الشاعر الكريم مظلوميّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ في تلک الميمّية الرائعة. و علّقتُ عليها في بحث كتبته عن هذا الشاعر.

و تعرّض شاعرنا الرضّي قليلاً الى مظلوميّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فقال، و هو يذكر قبورهم و يتشوّقها:

سقى اللّه المدينة من محلّ لُبابَ الماء و النُّطف العِذابِ
و جاد على البقيع و ساكنية رَخّي الذّيلِ ملآن الوطابِ
و أعلام الغرّي، و ما استباحت معاملها من الحسبِ اللُّبابِ
و قبراً بالطفوف يضمّ شِلواً قضى ظمأ الى برد الشرابِ
و سامرا، و بغداداً، و طوساً هطولَ الودقِ منخرقَ العُبابِ
قبور تنطفُ العبرات فيها كما نطف الصبيرِ على الرّوابي
صلاة اللّه تخفق كلّ يومٍ على تلک المعالم و القبابِ[1]

۱ ـ *الديوان*، ۱ / ۱۱۴، ۱۱۵.

تترجم لناهذه الابيات ما عاناه أهل البيت ـ عليهم السلام ـ من العنت و الاضطهاد اذ تفرّقوا في الاقطار و الامصار و ماتوا فيها فتوزّعت قبورهم على تلك الاماكن. و لايدلّ هذا الاّ على عظم شأنهم، و خوف السلاطين منهم لشعورهم انّهم أحقّ بالامر منهم، و يدلّ أيضاً على انّ الحكّام كانوا يحسبون لهم حساباً خاصّاً، و كانوا يعلمون علم اليقين بكفاءتهم و جدارتهم و عظمتهم.

و قال شاعرنا في رثاء جدّه سيّدالشهداء - عليه‌السلام -:

كربلا، لازلتِ كرباً و بلا ... مالقي عندكِ آل المصطفى
يا قتيلاً قوّض الدهرُ بهِ ... عُمْدَ الدّينِ و أعلام الهدى
قتلوه بعد علم منهم ... أنّه خامس أصحاب الكسا
و صريعاً عالج الموت بلا ... شدّ لحيين و لامدّ ردا
غلوهُ بدم الطّعن، و ما ... كفّنوه غير بوغاء الثّرىٰ
مُرهقاً يدعو، ولاغوثَ ... لهبأب بَرّ وَجدٍّ مصطفى
و بأمٍّ رفع اللّه لها ... عَلَماً مابين نسوان الورى
أيّ جدٍّ و أبٍ يدعوهما ... جدِّ، ياجَدّ، أغثني يا أبا
يا رسول اللّهِ، يا فاطمة ... يا أميرالمؤمنين المرتضى[1]

يخاطب جدّه الحسين - عليه‌السلام - و يذكر ما أقدم عليه الأمويّون الّذين جسّدوا وحشيّة الطبع البشري على حدّ تعبير الاستاذ العقّاد. و يصف مالاقى جدّه من الارهاق، و قلّةالناصر. و يتطرّق الى منزلة أُمّه الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء ـ عليهاالسلام. و ينقل لنا استغاثة الحسين يوم العاشر من المحرّم، لاليستدّر العطف من اولئک الاوباش المتوحّشين، بل ليلقي عليهم الحجّة و يستغيث لدينه و رسالته.

و سجّل الشاعر شيئاً من فضائل جدّه أميرالمؤمنين - عليه‌السلام - فقال:

قسيمُ النّار جدّي يوم يُلقى ... به بابُ النّجاة من العذابِ

۱- *الديوان*، ۱ / ۴۴-۴۶.

و ساقي الخلقِ و المهجات حرّى
و فاتحة الصراطِ الى الحسابِ

و من سمحت بخاتمه يمين
تضنّ بكلّ عالية الكعاب

أما في باب خيبر معجزاتٌ
تصدّق، أو مناجاة الحِبابِ[1]

ينقل لنا الشاعر هنا نزراً يسيرا من فضائل و مناقب جدّه المرتضى ـ صلوات اللّه عليه ـ فهو قسيم النار يوم القيامة، بل قسيم الجنة كما تواترت الروايات في ذلک. و هو الّذي يسقي من الحوض. و هو الّذي تصدّق بخاتمه راكعاً فكانت و لايته مقرونة بولاية اللّه و رسوله و لايرتاب في ذلک ذو لبّ و بصيرة. و هو الّذي قلع باب خيبر وحده بيدٍ ربّانيّة.

و هناک حادثة سياسيّة مهمّة وقعت في عصره، غير انّه لم يسجّل منها موقفاً. و هي خلع الطائع لمّا دخل عليه بهاء الدولة لتجديد العهد «و معه جمع كثير. و لمّا دخل، قبّل الارض بين يدي (الخليفة) و اجلس على كرسي، و دخل بعض الديلم كأنّه يريد أن يقبّل يد (الخليفة) فجذب الطائع بحمائل سيفه، و أنزله عن سريره، و هو يقول: إنّا للّه و انّا إليه راجعون»[2].

و كان الشريف الرضي حاضراً في تلک الساعة، فلم يتّخذ موقفاً معيّناً من الحادثة، غير انّه خرج مسرعاً ليحفظ شخصيّته. و حزّ ذلک في نفسه، فلم يتمالكها، و نظم نونيّته في ذلک. يقول فيها:

إذا ظننا و قدّرنا جرى قدرٌ بنازلٍ غير موهومٍ و مظنونِ
إعجب لمسكة نفسٍ بعد مارميت من النوائب بالأبكار و العونِ
و من نجائي يوم الدار حين هوى غيري و لم أخلُ من حزمٍ ينجّيني
مَرَقتُ منها مروق النجم منكدراً و قد تلاقت مصاريع الردى دوني

۱- *الديوان*، ۱ / ۱۱۶.

۲- *عبقريّة الشريف الرضي*، ۱/۱۴۶.

و كـــنتُ أوّل طـــلاّع ثـــنيّتها و مـــن ورائـــى شـــرّ غـــيرمأمونِ
من بعد ما كان ربّ الملكُ مبتسماً الىّ أدنـوه فـي النـجوى و يـدنيني
أمسيتُ أرحمُ من أصبحت أُغبطه لقـد تـقارب بـين العـزّ و الهـونِ
و مـنظر كـان بـالسّراءِ يضحكني يـا قُـرب مـاعاد بـالضرّاءُ يبكينى
هـــيهاتَ أغـترّ بـالسلطان ثـانية قد ضلّ ولاّج أبواب السّلاطينِ[1]

يصف لنا الشاعر في هذه الابيات ذاك المشهد المثير اذ انقلب الوضع على الطائع، و نجاالشاعر من ذلك الانتهاك الصارخ و هو جريئ شجاع لم يرهبه الموقف الاّ انّه أراد أن يحفظ شخصيّته لانّ الجوّ كان متكهرباً، فخرج لكي يُبقي على ماء وجهه. لكنّه تأثّر كثيراً لذلك المشهد المدهش، و استنتج منه عدم فلاح روّاد البلاط!

و آخر مجال تناولته الظاهرة السياسيّة هو فخره السياسي المزيج بالمفاهيم الدينيّة، الّذي طالما كان يصحر عنه، لا سيّما و انّه يذكر أجداده الطاهرين ـ عليهم السلام ـ فمن ذلك قوله:

مـعشر مـنهم رسـول‌الله والـ كاشفُ الكربِ، اذا الكرب عرا
صِـــهرهُ البـــاذل عـنه نـفسه و حسـام‌اللّه فـي يـومِ الوغـى
أوّل النـاسِ الى الدّاعـي الّـذي لم يـقدّم غـيره لمّـا دعـا ـــ
ثـمّ سـبطاه الشـهيدان، فـذا بـحسا السـمّ، و هـذا بـالظُّبى
و عـلىٌّ، و ابـنه البـاقرُ، و الصـا دقُ القـول، و مـوسى، والرّضـا
و عـــلـيّ، و أبـــوه و ابـــنُهُ و الّذي ينتظر القوم غدا ـــ[2]

و قال و قد بلغه عن بعض قريش افتخار على ولد أميرالمؤمنين علىّ‌بن أبي‌طالب - عليه‌السّلام - بمن لانسب بينه و بين‌الصّحابة:

يـــفاخرنا قـــومٌ بـمن لم يـلدهم بِـتَيم، اذا عُـدَّ السَّـوابـقُ أوعـدي
و يـنسون مـن لو قـدّموه لقـدّموا عـــذار جـوادٍ فـي الجـيادِ مُـقَلّدِ
فـتى هـاشم بـعد النّـبي و بـاعُها لمرمى عُـلىً أو نـيل مـجدٍ و سـؤددِ

۱- *عبقريّة الشريف الرضي*، ۱/۱۴۶؛ *الديوان*، ۲/۴۴۶، ۴۴۷.

۲- *الديوان*، ۱ / ۴۷.

ولولا عـلـيٌّ مـاعلوا سـرواتـها ولاجـعجعوا منها بـمرعىً و مـوردِ
أخـذنا عـليهم بـالنبيّ و فـاطمٍ طلاعَ المساعي من مقامَ و مقعدِ
و طُـلنا بسـبطي أحـمدٍ و وصـيّهِ رقابَ الورى من متهمين و منجدِ[1]

و الفخر هنا ملحوظ، و هو ماثل لذي عينين، ولم ينطق الاّ بالحقّ لانّ تقديم عليّ فضيلة. ولو قدّمه المسلمون على غيره ممّن لايقاس به لأكلوا من فوقهم و من تحتهم. وللّه درّ الخليل بن احمد استاذ سيبويه إذ قال: الدليل على أولويّة عليّ استغناؤه عن الكلّ و احتياج الكلّ اليه.

و قال مفتخراً أيضاً:

أبـعدَ النـبيّ والوصّـي تـروقُني مناسبُ من يُعزى لمجدٍ و يُنسبُ
يـقرّ بـفضلي كـلّ بـادٍ و حـاضرٍ و يحسدني هذاالعظيم المحجّبُ[2]

والفخر فضيلة عبادية اذا كان بالصالحين! ولايجحد ذلک الاّ مكابر! و في الفخر بأئمّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ إرضاءللّه، و تطييب لقلب رسول اللّه، و تفهيم للناس بفضلهم و مجدهم و منزلتهم.

هذه هي أهمّ المجالات الّتي بلغت الظاهرة السياسيّة فيها مبلغها. و هل هناک شخصيّات سياسيّة اخرى بارزة اتّصل بها الشريف عبر الشعر؟ والجواب هو: نعم، إذ له شعر في الحمدانيّين، و في الصّاحب بن عبّاد.

فعندما ورد الخبر بوفاة تقيّة بنت سيف الدولة أبي الحسن عليّ بن حمدان بن عبداللّه بن حمدان بمصر و قد انتقلت اليها عن الشام وكانت من أفاضل نساء قومها. وكان كثيراً ماتبلغه شدّة شغفها بما يقع الى تلک البلاد من شعره حتّى انّها التمست انتساخ نسخة عن ديوانه على التمام و حملها اليها من العراق. وكان ورود الخبر بوفاتها في شهر رمضان سنة ۳۹۹ هـ رثاها بلاميّة رائعة قال فيها:

نـعى النـاعون واضحة المحيّا ألوفَ البيتِ ذي العمد الطوالِ
مـن البـيض العـقائل من معدٍّ بـنين قـبابهنّ عـلى الجـلالِ

۱ـ *الديوان*، ۱ / ۳۰۹.

۲ـ *الديوان*، ۱ / ۸۳.

نـــعواظُـــبةَ لأبـيض مشـرفيّ قـديمِ الطّـبع عـاديِّ الصـقالِ
لســـيف الدّولة العـــربيّ فـيها صنيعُ القينِ قام على النصالِ[١]

و يستطرد الشاعر في وصف هذه المرأة الصالحة و قبيلتها و أهلها و يعدّد مآثر الحمدانيّين رجالاً و نساءً. و للحمدانيّين تاريخ سياسيّ مشرق أثنى عليه المعنيّون. و من اروع ماوصفوا به شجاعتهم و حمايتهم للثغور الإسلاميّة من هجمات الروم المسيحيّين، و كذلک عرفوا بحبّهم للعلم، و احتضانهم للعلماء، و الادباء.

و أمّا كافي الكفاة الصاحب اسماعيل بن عبّاد فقد كان عالماً و سياسيّاً محنّكاً، و له دور في التاريخ السياسي الاسلامي. و نال من الشريف مدحاً له في حياته، ورثاءً له بعد وفاته. قال يمدحه:

لک القـلمُ المـاضي الّـذي لو قـرنته بجري العوالي كان أجرى و أجـودا
اذا انسـلّ مـن عـقدالبـنان حسبته يحوک على القُرطاسِ بُـرداً مـعمّدا
يـــغازل مـــنه الخـطّ عـيناً كـحيلةً اذا عـاد يـوماً نـاظرُ الرمـح أرمـدا
و مـدحُکَ هـذا بكـر مـدح مـدحتُهُ وكنت أروضُ القول حتّى تسدّدا[٢]

و يسترسل الشاعر في ذكر مناقب الصاحب و مكارمه ليسجّل نبذة تاريخيّة عن رجل أحسن في حياته فاستحقّ الخلود بعد مماته. و هاهو يرثيه بقصيدة دونها قصائد الرثاء الاخرى. و نكتفي هنا بذكر مطلعها لضيق المجال:

أكـذا المـنونُ تـقنطرُ الابـطالا أكذا الزّمان يضعضع الأجبالا[٣]

و ديوان شاعرنا الرضّي زاخر بأسماء ملوک و وزراء مدحهم، أو شكرهم، أو هنّأهم لمناسبة، أورثاهم، أورثى ذويهم. و لايسعفنا المجال هنا لذكرهم بالتفصيل. غير انّ الّذي نسجله هنا هو انّ قصائده في هذا المجال احتلّت مساحة يؤبه لها من ديوانه بجزئيه و هي ملحوظة في ديوانه المذكور بشكل لافت للنظر. و كأنّنا نتمثّل الشريف الرضّي شخصيّة سياسيّة لها دورها في مجريات الامور. و كان يحسب لها

١- *الديوان*، ٢ / ٢١٢.
٢- *الديوان*، ١ / ٢٨٠.
٣- *الديوان*، ٢ / ٢٠١.

حساباً خاصّاً بحكم الانحدار من الدوحة المحمديّة العلويّة، و بحكم كفاءتها العلميّة، و جدارتها الاجتماعيّة.

لقد أرادالشريف أن يكون له حظٌ في مقدّرات الامّة. ولم يرق له أن يتصدّى الاوباش لادارة شؤونها. بيد أنّنا عندما نواجه السؤال الّذي يحوم حول البواعث الّتي أفضت الى انبثاق تلك الظاهرة الملحوظة أو الى مدح السلطان العبّاسي على وجه الدّقة، نجد المؤرّخين يذهبون في ذلك مذاهب شتّى. و يمكن أن نوجز آراءهم فيما يلي:

الرأي الاوّل: و يذهب أصحابه الى التشكيك في صدق عواطف الشريف، و هو يمدح الطائع[1]. أي: انّه كان مجاملاً سياسيّاً و مداريا، أو قل: كان ينتهج التقيّة لمجاراة السلاطين غير انّ الّذي يطالع ديوانه، يجده يمدح الطائع حتّى بعد خلعه، فلنسمعه و هو يخاطبه:

يا ناظِرَ الدّين الّذي رَجَعَ الزّمانُ به كليلا
ياصارمَ المجدَ الّذي مُلئت مضاربه فلولا
يا كوكب الأحساب أعـ ـلَكَ الدّجى عنّا افولا[2]

و يستمرّ في خطابه الى أن يقول معدّداً مفاخره:

مَنْ يسبغ النّعمَ الجسا مَ، و يصطفي المجدَ الجزيلا
مَنْ ينتج الآمال يَو مَ تعود باللّيانِ حُولا
مَن يُورد السمرَ الطّوا لَ، و يطعمُ البيض النّصولا
من يزجُرُ الدهرَ الغشوم و يكشف الخطب الجليلا[3]

ولم يقف عند هذا الحدّ، بل رثاه رثاءاً صادقاً. و الرثاء لايصدر عادةً الاّ عن عواطف صادقة لانّ المرثّي رهين رمسه لايُرجَى و لايُخشَى و ماذا يرجوالراثي غيرالتعبير عن مشاعره و أحساسيه حيال الميّت، بخاصّة و الطائع مات بعد خلعه

۱- *عبقريّة الشريف الرضّي*، ۱ / ۱۳۴.

۲- *الديوان*، ۲ / ۱۹۵.

۳- *الديوان*، ۲ / ۱۹۵-۱۹۶.

بسنين؟ فلنسمعه و هو يخاطبه:

أيُّ طـــودٍ دُكّ مـن أيّ جـبالِ لقـحت أرضٌ بـه بـعد حِـيالِ
أيُّـها القـبرُ الّـذي أمسـى بـهِ عاطلَ الارض جميعاً و هو حالي
أيّـها الظـاعن لاجـاز الحـيا أبـداً بـعدك بـالحيّ الحـلالِ[1]

و هكذا يواصل الشاعر تأبينه للطائع و هو يعدّد خِلاله و شمائله.

فمدحه بعد خلعه، و رثاؤه بعد موته يدلاّن على صدق عواطف الشاعر. و مايدرينا فلعلّ للطائع شمائل كريمة كانت تحفّز الشريف على مدحه و الثناء عليه، و هو رجل يفهم ماذا يقول. و نقل لنا جامع الديوان انّه كان في خلافته شديد الميل اليه، وكان بينهما أحوال وكيدة و أُنس[2]. و لعلّ هذه العلاقة الوطيدة كانت باعثاً آخر على المدح. هذا و انّ المدح قد تجاوز بني العبّاس الى غيرهم.

فما نستشفّه من كلّ ذلك هو ضعف هذا الرأي و عدم صموده أمام الدليل.

الرأي الثاني: و يعتقد أصحابه انّ الشريف كان يمدح الطائع بصدق و اخلاص لانّه كان يرى فيه رجلاً عربيّاً هو البقيّة من مجد بني العبّاس[3].

و قد نتّفق مع الشطر الاوّل من هذا الرأي. أمّا التعليل فلا أخاله صائباً، و ذلك لانّ الشريف عاتب الطائع مرّة كما نقلنا سلفاً، و عرّض بالقادر، و مدح البويهيّن و غيرهم[4] و هم ليسوا عرباً. ولا أحسب انّ مجد بني العبّاس كان يهمّ الشريف بقدر مايهمّه تحقيق مآرب سياسيّة كان يتحمّس لها.

الرأي الثالث: و هو ما توصّلت اليه في هذه الدراسة و تعضده الادلّة و البراهين، و ملخّصه:

إنّ ما كان عليه الشريف الرضي من شخصيّة متزّنة حكيمة، و شمم هاشميّ رفيع، و اباء شامخ فريد، و توجّه صائب رشيد تدعونا الى أن نتلمّس لحسّه السياسي

١- *الديوان*، ٢ / ٢٠٠.

٢- *الديوان*، ٢ / ١٩٧.

٣- *عبقريّة الشريف الرضي*، ١ / ١٣۴.

۴- *الديوان*، ج ١، مثلاً ص ١٣، ٦١، ٦٩، ٢٧٣، ٢٨٠، و ج ٢، ص ٩٥، ٩٩، ١١١، ٢٠١، ١٢٠.

على صعيد المدح أسباباً تتّفق و شخصيّته الكبيرة. لاسيما و قد أجمع مؤرّخو الادب، بما فيهم شانئوه، على انّه لم يتكسّب في شعره و لم يستجد، وكان لايلقي القصائد بنفسه بل ينشدها غيره نيابة عنه. مضافاً الى نَفَسِهِ المترفّع في المدح، و تعفّفه، و استقامته. و لعلّ طموحه لفرض شخصيّته بوصفه سيّد الطالبيّين، و حرصه على أن يكون رجلاً ذاشأن في تسيير الشؤون السياسيّة، و استهدافه مآرب سياسيّة تتجسّد في رعاية الكتلة المؤمنة المتمثّلة بالصفوة من المنتمين الى مدرسة أهل البيت انتماءاً نسبيّاً أو رساليّاً، و النظر في لمظالم، و الانتصار للمظلومين، و الدفاع من المحرومين، و مواكبة الأهداف الانسانيّة و الرساليّة، و الحرص على الاضطلاع بالمهامّ الدينيّة لسدّ الطريق أمام غيرالكفوءين خشية اضطلاعهم بها، و نصح السلطان العبّاسي و توجيهه، هي الأسباب الّتي تنسجم و الظاهرة السياسيّة الّتي يمثّل المدح أحد معالمها البارزة.

و ربّما كانت هناك أسباب أُخرى خفيّة وراء المدح و لم يبح بها لأحد. الاّ انّنا لانتفّق مع كلّ ماذكره في مدحه. فلا نتفق معه عندما يخاطب الطائع مادحاً له سنة ۳۷۶ هـ و هو يقول:

رأي الرشيد، و هيبة المنصور في حُسن الأمينِ و نعمة المتوكّلِ (۱)

و هو يعرف ماذا فعل هؤلاء بأهل البيت ـ عليهم السلام ـ وكان اللائق به أن يعرض عن ذكر هؤلاء الذين كانوا ضالعين في الظلامات الّتي حلّت بأهل البيت ـ صلوات اللّه عليهم.

و لانتفق معه عندما يخاطبه سنة ۳۷۸ هـ فيقول:

يا جميلاً جماله ملءُ عيني و عظيماً اعظامه ملءُ قلبي (۲)

و ربّما عبّرت المدائح عن عرفان الجميل، لانّ مدائح الشريف للطائع لم تبدأ الاّ بعد أن اطمأنّ على خلاص أبيه من الاعتقال و رجوعه الى بغداد، أي: بعد سنة

---

۱ - *الديوان*، ۲ / ۱۱۵.

۲ - *الديوان*، ۱ / ۵۲.

٣٧٣ هـ[١].

و ننوّه هنا بما قاله جامع الديوان انّ قوماً من أعدائه قالوا لبهاء الدولة... و انّه انّما يتكبّر عليك بترك الانشاد لانّه لم ينشد قطّ ممدوحاً، و هذه فضيلة تفرّد بها عن الشعراء[٢].

و اذا رمنا التعرّف على مواصفات هذه الظاهرة، و توخّينا تحليلها، فنقول مستهلّين الحديث بنصّ للكاتب المعروف شوقي ضيف، يقول فيه: «وهو في شعره يكثر من مديح الخلفاء العبّاسيّين لعصره و أُمراء بني بويه و وزرائهم، الاّ انّه يتوقّر في مديحه و لا يسفّ الىٰ مغالاةٍ أو غلوّ، بل يحتفظ بكرامته، و هي كرامة تُردّ الى طيب محتده و مكانته في بيته و عصره»[٣].

١- الظاهرة السياسيّة و وليدة المناخ السياسي الّذي كان يعيش الشريف الرضي في كنفه. أعني: انّ المناخ السياسي كان يفرض على الشاعر أن يواكب الاحداث السياسيّة. و لعلّها تمثّل شعوراً بالمسؤوليّة إن صحّ التعبير.

٢- تميّزت هذه الظاهرة بالنزاهة و العفّة نقيّة من شوائب المواربة والمجاملة والمراءاة.

٣- لم تعرف الظاهرة أيّ لونٍ من ألوان التكدّي و الاستجداء و التسكّع على أبواب السلاطين و الارتزاق على موائدهم. لنسمعه و هو يقول:

فأوسعني قبل العطاء كرامةً و لامرحباً بالمالِ إن لم أُكرّمِ[٤]

و يقول:

أُريدُ الكرامة لاالمكرمات و نيلَ العُلا لاالعطايا الجساما[٥]

٤- تتّسم الظاهرة بترفّعها متميّزة على مثيلاتها جمعاء، ذلك لانّ صاحبها لم

١- *عبقريّة الشريف الرضي*، ١ / ١٣٤.

٢- *الديوان*، ٢ / ٥٥٢.

٣- *الفنّ و مذاهبه في الشعر العربي*، ص ٣٥٣.

٤- *عبقريّة الشريف الرضي*، ١ / ٧٥.

٥- نفسه.

ينشد القصائد بنفسه، بل كان يخوّل غيره لانشادها. و هذه صفة لم نألفها عند الشعراء الآخرين جميعهم.

۵ - لاتخلو الظاهرة من سلبيات تنمّ عن انفتاح مفرط لدى الشاعر. و تترجمها بعض الابيات الواردة في تضاعيف المدح، كالّتي نقلناها في ما تقدّم.

۶- تعثّرت الظاهرة في بعض توجّهاتها إذ لم تسجّل لنا أحداثاً مهمّة، ألمعنا اليها سلفاً.

و ربّما كان الشريف محقّاً في توجّهته السياسيّة نظراً الى المناصب السياسية الّتي كان يتولّاها. و نظراً الى رغبته في التفاعل مع الاحداث السياسيّة، و عدم ترك الساحة السياسية للآخرين. و ربّما لم يكن محقّاً بسبب ملوّثات المناخ السياسي.

و لعلّ أفضل تقويم يوائم نزعات الشاعر السياسيّة هو أن نقول بأنّه كان شاعراً خاض غمار السياسة ليؤدّي ما عليه من دور، مع توقّره واحتفاظه بكرامته على حدّ تعبير الاستاذ شوقي ضيف.

و أمّا صنع المواقف السياسيّة فقد مرّ بنا ذلك في سطور متقدّمة من هذا الفصل، فلا حاجة الى التكرار.

الى هنا أكون قد قدّمت الاجوبة اللازمة عمّا أثرته من علامات استفهام في مستهلّ هذا الفصل. إن وفيتُ، فذلك ما أطمح اليه. و إن قصّرتُ، فذلك مبلغي من العلم. راجياً أن يكون هذا البحث مقدّمة لدراسة شاملة موسّعة بتوفيق اللّه و لطفه و منّه. فانّنا نعتزّ أن نقف إجلالاً و إكباراً في رحاب هذا العبقريّ الّذي فلمّا يجود الزمان بمثله. و نفتخر أن نُشيد بعظمائنا و نترنّم بذكرهم. و عادة الامم هذا اليوم تعظيم شعائرها في حقل تمجيد علمائها و عظمائها و أُدبائها. و نحن أحقّ من غيرنا في ذلك للعلاقة الروحية و القلبية و العاطفيّة الّتي تشدّنا الى اولئك الامجاد الّذين يمثّل الشريف الرضي، سليل موسى بن جعفر أحدهم.

سلاماً زاكياً و تحيّة مباركة طيّبة نبعثها الى روح ذلك العيلم الألمعي، راجين منه الصفح إن قصّرنا بحقّه، و الصّفح منه قريب.

مصادر الدراسة

۱- **ديوان الشريف الرضي**، جزء ان ضخمان منشورات وزارة الارشادالاسلامی، ط ۱، رجب ۱۴۰۶ هـ منشورات مطبعه وزارة الارشادالاسلامی، الطبعة الاولیٰ فی ایران، بمناسبة المؤتمر، الألفي لذكرىٰ وفاة الشريف الرضي ... .

۲- **عبقريّة الشريف الرضي**، الدكتور زكي مبارك، جزء ان، طبعة ۱۴۰۸ هـ، داالجيل، بيروت، الطبعة الثانية.

۳- **الفنّ و مذاهبه فی الشعر العربی**، للدكتور شوقي ضيف، الطبعة السادسة، الناشر: دارالمعارف بمصر، مكتبةالدراسات الأدبيّة، ۱۹۶۰ م.

۴- **الشعر الجاهلی**، مراحله و اتّجاهاته الفنيّة، للدكتور سيّد حنفي حسنين.

۵- **الجامع في تاريخ الادب العربي**، حنّا الفاخوری، الطبعة الاولیٰ، سنة ۱۹۸۶م، الناشر: دارالجيل ـ بيروت ـ لبنان.

۶- **يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر**، لأبي منصورالثعالبی، المتوفّی فی سنة ۴۲۹ هـ، الجزء الثالث حقّقه و فصّله و ضبطه و شرحه محمد محيی الدين عبدالحميد، الطبعة الثانية، ۱۳۷۵ هـ، ۹۵۶ م، مطبعة السعادة في القاهره.

۷- **لمحات من الفكر السياسي**، بقلم نخبة من العلماء و المفكّرين.